الفصل الثانى
البارودى شاعرا

للبارودى شخصيتان شخصية أدبية، وشخصية سياسية أما شخصيته الأدبية فهى خالدة فقد شغف البارودى فى مطلع شبابه بقراءة شعر الأقدمين خاصة شعر الفرسان الذين كانوا يذكرونه بذكرى أجداده الذين حازوا المجد خلال حروبهم ضد الصليبين والتتار، ونشروا أعلام مصر فى ربوع الشام وجزر البحر المتوسط، فاندفع يختزن فى مخيلته وذاكرته كل ما استهواه من أشعار الحماسة والبطولة ، كما تعلق بالشعر عن هوى فاتقن أوزانه ونغماته بموسيقية تظهر فى صياغته كما تظهر فى اختياره وكلما أقبل على القراءة تزداد ملكة الشعر منه قربا، وتملأ عليه وجدانه حتى صاغ منه أجمل الألفاظ وأروع العبارات، وترنم بأنغام فى الشعر لم يألفها اهل زمانه من الشعراء الذين عاشوا أزمة ضعف الشعر العربى وانحلاله منذ أن احتل العثمانيون مصر ، واعتبروا الشعر تجارة وارتزاقا مما تسبب فى ركود وتدهور الأدب العربى سواء فى الأغراض أو المعانى والأساليب، فكان أبرز معاصريه "محمود فهمى الساعاتى" الذى لا يقول الشعر إلا للتكسب المادى او لاسترضاء الحكام والولاة رغبة فى العطاء والإحسان، وكانت المُحَسَّناتُ البديعية عندهم كل شئ كما كانت الأغراض ضيقة لا تخرج فى جملتها عن المدح أو القول فى المناسبات، وكانت المعانى مبتذلة ساقطة أما الأساليب فكانت تقليدا عن السابقين لكن البارودى استطاع بموهبته ان يقفز قفزة يسمو بها إلى مكان فحول الشعراء الأقدمين

حيث سما بأغراض الشعر، وصاغه فى أجمل لفظ وأروع عبارة، فلم يقله التماسا لنيل عطاء أو التماس عطف من حاكم وإنما تغنى به ليطرب سامعيه مما آثار عجب الناس، وحق لهم ان يعجبوا من هذا الشاعر الملهم الذى نفخ فى الشعر العربى روحا حديثه تمثلت فى نزوعه إلى تصوير الواقع ببساطة وسلاسة وقوة دون اعتماد على المُحَسَّناتُ البديعية ودون إغراق فى الخيال ومهدت السبيل من بعده لمن تابع طريقه أمثال "احمد شوقى" و "حافظ ابراهيم"و "اسماعيل صبرى" وغيرهم.

لقد تغنى البارودى كشاعر مطبوع غير متكلف لاحساسه ان موهبته الشعرية تفرض عليه التعبير عن العواطف والإحساس التى تمتلأ به نفسه فجاء بأنغام من الشعر لم يألفها أهل زمانه، ونفخ فيه روحا دفعت به إلى الصدارة وسمت به إلى مكان كبار الشعراء الأولين، فتغنى بمصر وتأمل أمجادها، وحسن ضيافتها لأجداده عندما جاءوها مهاجرين ورفعتهم إلى مكان السيادة مما جعلهم يقدمون أنفسهم فداء لها ثم جاء من بعدهم فرأى نور الحياة بين أهلها، وعرف الدنيا فى جنباتها، حيث وجد نفسه لصيقا بها يرتبط بأرضها وبأهلها ارتباط مصير، ويختلط حبها بلحمه ودمه، وعواطفه وشعوره، وعاش حياته يهتف بها وبكرم أهلها **مثل قوله:**

سل مصر عنى إن جهلت مكانتى
تخبرك عن شـــرف وعز أقـــدم

بلد نشـــأت مع النبـــات بأرضها
ولثمت ثـــغر غديرها المتبـــسم

فنسيمـــها روحى ومعـــدن تربها
جسمى وكوثر نيلـــها محيا دمى

فإذا نطقت فبالثناء على الذى

أولتـــه من فضـــل على وأنعم

أهلى بها واحبتى وكفى بهم

فخرا ملكـــت به عنـــان الأنجم

هى جنة الحسن التى زهراتها

حور المهـــا وهزار أيكتها فمى[1]

وإلى جانب ذلك فقد تحدث البارودى عن الحب وما يفعله فى المحبين والأحاسيس التى تخامرهم وأفرد للجمال صورا ممتعة فى أشعاره حيث التقت معانيه مع عواطفه، بعد أن أحب حبا أخذ بمجامع قلبه ، واختلطت أحاسيه فى نفسه حتى مرض فتضرع إلى محبوبته ان يلقاها حتى لا يتحكم فيه المرض ، فأنشد شعرا قال فيه:

عليل أنت مسقمـــــه فما لك لا تكلمـــــه

سرى فيه الضنى حتى بدت للعين أعظمه

فلا إن باح تعـــــذره ولا إن نـــاح ترحمه

ودمعى أنت مرسلـــــه وقلبى انت مؤلمـــه

ولا والله مالى فى الـــ هـــوى ذنـــب فأعلمه

وروعة الغزل عند البارودى أنه صادر عن قلب يحب، فإذا نعم به سأل نغما يتدفق سلاسة وجمالا، وإذا عذبه صاغ الألم فى عواطف لاذعة يمازجها حس دقيق، يصور ذلك كله فى سهولة ويسر، لأنه يصور واقعا يعيشه ينفذ إلى أعماقه ويتجاوب مع مشاعره.

---

(١) الهزار ، طائر مغرد .

ويجهر البارودى بحبه ، فيقول :

يلومون أشواقى كـــأنى ابتدعتهـــا

ولو علموا لاموا الظباء الجواريا

ومالى ذنب عندهـــــم غير أننـــى

شدوت فعلمـــت الحمـــام الأغانيا

وهل يكتم المرء الهوى وهو شاعر

ويثنـــى على أعقـــابهن القوافيا؟

والبارودى فى حبه كان راقيا عفيفا، وكان يتيه بعفته فى حبه، ويراها مكانا لفخره، فيعلن رأيه فى اللهو والحب صريحا فى قوله:

وهل فى الصبا واللهو عار على الفتى

إذا العرض لم يدنس بأثم ولا بغو

وإلى جانب ذلك الحب فقد كان البارودى مغرما بالطبيعة فوصف سحر طبيعة مصر، سماؤها ونيلها وربيعها وخريفها ونخيلها وأعنابها، كما وصف طبيعة البلقان وكريت فى قصائد منفصلة خلال حديثه عن الحنين لمصر التى كان يتذكرها دائما فى غربته وله قصائد عديدة فى وصف الطبيعة نذكر منها:

سواى بتحنان الأغاريد يطرب

وغيرى باللذات واللهو يلعب

أما عن شعر الفرسان الذى عشقه البارودى فقد تحدث عنه موضحا شأن الفرسان الذين يضحون بأنفسهم حيث تقوم الحرب ، وتخرج السيوف

من أغمادها، وأنه عندما يحفظ أبياتا تقال عن النخوة والتحدى تهتز نفسه إلى النظم على وتيرتها.

ويتحدث البارودى ايضا عن المثال الرفيع للفارس العربى أيام حروب الصليبين والتتار، ويعيد إلى واقعنا صورته بجميع خطوطها وألوانها، فتعكس السمو فى شخصيته، والنور الذى يضئ جوانبها.

وإلى جانب ذلك فقد حكى البارودى شعر البداوة وأفرط فى المحاكاة حتى ذكر الأطلال والرعيان والقبائل فقال قصائد شتى فى هذا المجال نذكر منها: (١)

غدت وهى مرعى للظباء وطالما
غنت وهى مأوى للحسان العقائل

فللعين منها بعد تزيال أهلها
معارف أطلال كوحى الرسائل

فأسبلت العينان منها بواكف
من الدمع يجرى بعد سح بوابل

ديار التى هاجت على صبابتى
وأغرب بقلبى لا عجات البلابل

من الهيف مقلاق الوشاحين غادة
سليمة مجرى الدمع ريا الحلاخل

إذا ما دنت فوق الفراش لو سنة
جفا خصرها عن ردفها المتخاذل

---

(١) للمزيد انظر: ديوان البارودى.

تعلقتـــها فى الحـــى إذ هى طفـــلة

وإذا أنا مجـــلوب إلى وســـائلى

فلما استقر الحب فى القلب وانجلت

غيابتـــه هاجـــت على عـــواذلى

فيـــاليـــت أن العهـــد بـــاق وأننـــا

دوارج فى غفل من العيش خامل

تمـــــر بنـــا رعيـــان كـــل قبيـــلة

فمـــا منحـــونا غير نظرة غافل

صغيرين لم يذهـــب بنا الظن مذهبا

بعيـــدا ولم يسمـــع لنـــا بطوائل

نسيـــر إذا ما القـــوم ساروا غديـــة

إلى كـــل بهـــم رائعـــات وحامل

وإن نحـــن عدنا بالعشـــى أفاضنـــا

إليـــه سديـــل من نقـــا متقـــابـــل

وتستمر القصيدة على هذا النسج المحكم والإجادة البالغة فى معارضة الأقدمين، إلا قليلا من الهفوات التى قد تدل على تقليد بعضهم والنقل عنهم.

ومن المعروف أن البارودى كان جنديا شجاعا عاملا، قد شهد الحروب وأبلى فيها البلاء الحسن أكثر من مرة، وكان إلى جانب شجاعته معروفا بالدهاء والحيطة، وكان على العهد فى رجال الحرب مستخفا بالحياة فى ميدان القتال محبا للحياة أيام السلم، مفرطا فى حبها والمتعة بها كأنما يعوض أيام المخاطرة والمغامرة بأيام الراحة والنعمة.

وهذه طبيعة بالجندى المفطور على الجندية، والشجاع المفعم بالنوازع الفتية، ومن أهمها الأخذ بالقرب الحاضر والبعد عن الإطالة والتعمق والاستقصاء، فليس من المطلوب من صاحبها ان يتغلغل فى التفكير إلى الدقائق والخفايا وأن يتوسع فى الخيال والفلسفة، وإنما اللازم له ان يكون عند دعوة الإقدام والفخار والقوة، وعند دعوة المرح والغرام والفتوة. وهكذا كان البارودى فى الحرب كان قد ذكر فى احدى قصائده:

وأصبحت فى أرض يحار بها القطا[1]

وترهبها الجنان وهى سوارح

بعيدة أقطار الديماميم لو عدا

سليك بها شأوا قضى وهو رازح

تصيح بها الأصداء فى غسق الدجى

صياح الثكالى هيجتها النوائج

تردت بسمور الغمام جبالها

وماجت بتيار السيول البطائح

فأنجادها للكاسرات معاقل

وأغوارها للعاسلات مسارح

وكذلك كانت أشعار البارودى ترجمانا لكل خالجة من خوالج نفسه الشاعرة، وأثرا من آثار تلك الحياة الباطنة والظاهرة، فليس الذى فى شعره شجاعة البارودى ومرحه وحسب. بل فيه التفوق البارز فى شعره الذى ارتقى فى التعبير عما يكتبه .

---

(١) نوع من الطيور يتعرف على موارد المياه من بعد ويهدى إليها السائرين.

قال البارودى فى مقدمة ديوانه: " إن الشعر لمعة[١] خيالية يتألق وميضها فى سماوه[٢] الفكر فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب فيفيض بلألائها نورا يتصل خيطه بأسلة اللسان، فينفث بألوان من الحكمة ينبلج بها الحالك ويهتدى بدليلها السالك. وخير الكلام ما ائتلفت ألفاظه وائتلفت معانيه، وكان قريب المأخذ بعيد المرمى سليما من وصمة التكلف بريئا من عشوة التعسف، غنيا من مراجعة الفكرة فهذه صفة الشعر الجيد فمن آتاه الله منه حظا وكان كريم الشمائل طاهر النفس فقد ملك أعنة[٣] القلوب. ونال مودة النفوس وصار بين قومه كالغرة[٤] فى الجواد الأدهم[٥] والبدر فى الظلام الأيهم[٦]، ولو لم يكن من حسنات الشعر الحكيم إلا تهذيب النفوس وتدريب الأفهام وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق، لكان قد بلغ الغاية التى ليس وراءها مسرح وارتبأ الصهوة التى ليس دونها لذى همة مطمح. ومن عجائبه تنافس الناس فيه وتغاير الطباع عليه، وصغو الأسماع إليه، كأنما هو مخلوق من كل نفس أو مطبوع فى كل قلب فأنك ترى الأمم على اختلاف ألسنتهم وتباين أخلاقهم وتعدد مشاربهم، لهجين به عاكفين عليه لا يخلو منه جيل دون جيل، ولا يختص به قبيل دون قبيل. ولا غرو فإنه معرض الصفات ومتجر الكمالات..." وللشعر رتبة لا يجهلها إلا من جفا[٧] طبعه، وتبا عن قبول الحكمة سمعه.

---

(١) لمعة : بريق ولمعان.
(٢) سماوه: سماء
(٣) الأعنة: سير اللجام الذى تمسك به الحصان.
(٤) الغرة: بياض مستحسن فى جبهة الفرس، والمراد أنه صار مشهوراً.
(٥) الأدهم: الأسود.
(٦) الأيهم: الصعب الشديد الحالك الذى لا يهتدى إليه أحد.
(٧) جفا: غلظ وخشن.

ومعنى ذلك أن الشعر عند البارودى لا يغره جمال اللفظ، ولا يغريه عن الاهتمام بالمعنى خاصة وانه وسيلة الحث على مكارم الأخلاق وأداة القوة والغلبة لقائله وخلود الذكر بعد موته، وتلك طريقة فى وصف الحقائق النفسية اتبعها الشعراء القدامى من قبله.

وقد أكد ذلك بقوله:

إن أشعـــر بيت انـــت قائلـــه

بيـــت يقال إذا أنشـــدته صـــدقا

للشعر فى الدهر حكم لا يغيره

ما بالحـــوادث من نقض وتغيير

يسمو بقـــوم ويهوى آخرون به

كالدهر يجرى بميسور ومعسور

فالشعر قد يخلد وقد يوحى بوحى المكارم وغيرها من تعبيرات الجمال. والبارودى جرى فى ذلك على قول أبى تمام حين قال:

ولم أر كالمعروف تدعى حقوقه مغارم فى الأقوام وهى معـــانم

ولا كالعلا ما لم ير الشعر بينها فكالأرض غفلا ليس فيها معالم

ولولا خلال سنها الشعر مادرى بغاة الندى من أين تؤتى المكارم

وتلك طريقة القدماء عامة فى تعظيم قدر الشعر والإشادة بفضله على قائله والمقول فيه:

وإنما الشعر لب المرء[1] يعرضه

على المجالس إن كيسا وإن حمـــقا

وربما كانت محاكاة البارودى للأقدمين كما يذكر الأستاذ العقاد هى أنفع ما فى شعره للأدب المصرى الحديث، لأنه رد إلى المعاصرين يقين القدرة

---

(١) لب المرء: عقله والمراد أن الشعر يدل على عقل الشاعر ووجدانه وثقافته وتجاربه وذوقه.

على مجاراة العباسيين والمخضرمين والجاهليين فى ميدان اللغة والتركيب بما أتقن من معارضتهم فى المذاهب والأساليب، وليس أدعى عن هذه الثقة إلى الابتكار والاستقلال والاعتماد على النفس والبعد عن قيود التقليد، فإذا حسبنا للبارودى سليقته المستقلة "وشخصيته" المعبرة، ونزعته إلى الاعتراف بحق العصر على الشاعر، فلا ننسى أن نحسب له جودة التقليد ما استتبعه من حسن الثقة وعزيمة النهضة.

وللبارودى بعد هذه الآية آية أخرى: هى أن الفضل الذى له على عصره أكبر من الفضل الذى لعصره عليه . فما جاء من عند نفسه كثير لا يقاس إليه ما يجئ من قدرة معاصريه، وذلك وحده خليق أن يبوئه زعامة جيله ويقدمه إلى طليعة معاصريه وتابعيه.

وهكذا قارن العقاد بين شعر القدماء والمحدثين موضحا دور البارودى فى محاكاة الأقدمين تارة وفى الاعتماد على النفس ومواكبة روح العصر.

لقد ساعدت البيئة المصرية الجانب التصويرى من أشعار البارودى فتحدث عن النهضة التى حدثت فى مصر خلال عصر اسماعيل بعد فترة الجمود التى تعرضت لها فى عهد سلفيه عباس الأول وسعيد متمنيا ان تساير مصر مراحل نهضتها، وان تكون القاهرة باريس الشرق، وقد أخذت قصائده تتناقل فى الأوساط الأدبية، فرأى فيها الشعراء شيئا غير ما عرفوه فى عصرهم ووجدوا فيها بعثا جديدا للماضى المجيد الذى ظنوه ذهب ولن يعود، وعرفوا فى شعره الأصالة التى أصبحت حديث الأدباء فى مجالهم ، ورواية الشعراء فى مجامعهم وهم لا يكادون يصدقون ان هذا شعر ينشده شاعر يعيش بينهم ، ويبعث الشعر العربى بعثا جديدا، وقد أكد البارودى ذلك فى أشعاره بقوله:

أحييت أنفاس القريض بمنطــقى

وصرعت فرسان العجاج بلهذمى

وفجرت ينبوع البيــان بمنطــق

عذب رويــت به غليــل الحوم[1]

نشأت بطبــعى للقريــض بدائع

ليســت بنحلة[2] شاعــر متقــدم

يصبو بها الحكمى صبوة عاشق

وتخف من طرب عريكة مسلم [3]

قومته بعــد اعوجـــاج قنــاته

والرمــح ليــس يروق غير مقوم

شعر جمعت به ضروب محاسن

لم تجــتمع قبــلى لحــى ملهـــم

أما عن شعر الحنين إلى الوطن عند البارودى فقد ظهر عندما شارك فى حرب كريت والبلقان وازداد هذا الحنين خلال فترة نفيه فى سيلان حيث قضى هناك فترة ليست بالقصيرة وكانت ربة الشعر نعم العزاء حيث مدت إليه قيثارتها، فصور الوطن أروع صورة انخرط خلالها فى الأسى وفى الألم وتتداعى الذكريات، فيخرجها صورا من شعره ، ومزيجا من عواطفه فقد كان مغيبه عن مصر بغير اختيار منه سواء أثناء المعارك

---

(١) الحوم : العطشى.

(٢) النحلة: الدعوى.

(٣) الحكمى. أبو نواس، الحسن بن هانى بن عبد الله بن صباح (٧٦٢- ٨١٣) = ومسلم : مسلم بن الوليد الأنصارى (صريع الغوانى) شاعر عباسى (٧٤٧-٨٢٣م).

التى خاضها فى كريت والبلقان أو إبان النفى فقال فى حرب كريت التى دارت رحاها بين الدولة العثمانية وثوار الجزيرة المتمردين وقد بعث الخديوي اسماعيل بنجدة عسكرية كان البارودى من ضباطها .

سرى البرق مصريا فأرقنى وحدى

وأذكرنى ما لست انساه من عهد

يضاف إلى ذلك فإننا نلاحظ فى شعره الغرام بمصر وحبه لمعاهد الصبا ومواطن الذكريات فيها ظهر مبكرا فى شعره ، ولم يكن وليد محنة الحروب التى خاضها خارج مصر، ولا وليد محنة النفى وحدها. وقد عبر عنه فى جميع تلك الأحوال. ومن ذلك قصيدته الرائعة التى مطلعها:

ترحل من وادى الأراكة بالوجد فبـــات سقيما لا يعيد ولا يبدى

سقيما تظل العائدات حوانيـــــا عليه بإشفاق وإن كان لا يجدى

وفيها بعد شكوى الوحدة والغربة وصف الليل وطوله، ووصف للسيف ومناجاته، وهيام بمعاهد الصبا فى الروضة، وفخر بشجاعته وفدائيته وشعره وتذكر لهوى نفسه فى الصبا. والواقع أن كل تلك الأغراض تضرب فى أعماق الرومانسية والتى نعرض منها لبعض أبيات من مناجاته السيف إذ يقول:

ولا صاحب غير الحسام منوطـــة حمـــائله منى على عاتـــق صـــلد

إذا حركته راحتـــى لملمـــــــة تطلع نحـــوى يشـــرئب من الغمـــد

أشد مضاء من فؤادى على العـــدا وأبطأ فى نصرى على الشوق من فند

أقول له والجفن يكسو نجـــــاده دموعا كمـــرفض الجمـــان مـــن العقد

لقد كنت لى عونا على الدهر مـــرة فمـــــا لى أراك اليوم منثلم الحد؟
فقال: إذا لم تستطع سورة الهـــــوى وأنـــــت جليد القوم، ما أنا بالجلد
وهل أنـــا إلا شقـــة من حديـــــــدة ألـــح عليها القين بالطرق والحد؟
فما كنـــت لولا أننى واهن القـــــوى أعـــلق فى خيط، وأحبس فى جلد

فدونك غيـــرى، فاستعنـــه على الجوى ودعنى من الشكوى،فداء الهوى يعدى

إنها إذن وحدة الفارس المقدام الذى حكم عليه بمغادرة الميدان فقعد محسورا لا أنيس له إلا السيف الذى جمعته به المعارك الخالية، فإذا به يناجيه. وإنما يثنى الشاعر على نفسه ضمنا لأنه لا يحمل مثل هذا الصمصام إلا جندى قوى ذو عاتق صلد . والسيف خير مؤنس لشاعرنا، فهو يستشعر حركة يده، فيتطلع نحوه مطلا من غمده، وهل ثمة أقصد من هذا التعبير وأدل على علاقة الود بينهما؟ أفنضع هذا الشعر التشخيصى الجميل فى مصاف الشعر التقليدى ونكون قانعين راضين؟ ولفرط إحساسه بالسيف فإنه يفضله على فؤاده، إذ يسبقه فى الذود عنه ضد الأعداء، ولكنه يخذله أمام الشوق، فالشوق إذن أعتى عدو يستعصى على الحسام الذى يبدو ثقيلا مثل الجبل فى حال الهوى. ولنلاحظ هنا التضاد بين موقف العشق وموقف الحرب، وهما لا يجتمعان على هذا النحو الفريد إلا فى شعر البارودى. وهذا التميز الفارق عادة ما يتم التغاضى عنه لدى تصنيف شعر البارودى. إذ يوضع فى قائمة الشعر التقليدى وكفى! وهذا بخس لقيمته عظيم. ولا يكتفى شاعرنا بكل هذا بل يشرع فى الحوار مع السيف حوارا فريدا فى شعرنا العربى ، والدموع تناسب من عينيه (عينى السيف)

مثل الجمان أى اللآلئ الفضية. إن السيف إذن ليبكى، وإن دموعه مثل الجمان المتطاير حين ينفرط عقده ، فهى تنساب من جفن السيف مما يمعن فى تفصيل الخيال ، لزيادة فى توضيح المعنى. فالشاعر يسلك سبيل الخيال للتعبير عن وجدانه الذى هو فى الواقع فكر حى مائج بالحركة. (١) ويتبع شاعرنا آيات الإبداع هذه برد السيف الذى يعد نموذجا يحتذيه الرومانسيون فى كل عصر مصداقا لقول البارودى عن شعره:

ولا تعجبن من منطقى إن تأرجت

به كل أرض فهو ريحانة العصر

وعلى عهد البارودى خلال عصر اسماعيل وتوفيق كان بالقاهرة صالونات للأدباء، ومجالس للفقهاء، ومجتمعات للظرفاء أو للمفتين، وندوات خاصة يجتمع فيها رجال الفكر والعلم وعشاق الأدب. وكانت ندوة البارودى الأدبية تعتبر فى القمة من هذه المجالس، يعقدها فى داره " بباب الخلق" ويحضرها صفوة القوم من الشعراء والعلماء وعشاق الأدب والعلم، ومن هؤلاء: الشيخ حسين المرصفى ، والسيد على ابو النصر، وعلى الليثى، ومحمود صفوت الساعاتى، والشيخ أحمد الزرقانى الكاتب الأديب، ومحمد سعيد بن جعفر مظهر الشاعر الثائر، وشيخ الأدباء عبد الله فكرى ، وأحمد وهبى الشاعر " الطرابيشى" والشيخ محمد عبده، وفيها أمهات الكتب الأدبية تقرأ، ودواوين الفحول من شعراء العربية. (٢)

---

(١) للتفاصيل أنظر: فايز على: محمود سامى البارودى شاعر الرومانسية.
(٢) للتفاصيل أنظر: على الحديدى: محمود سامى البارودى.

واستمرت الأحوال على ذلك المنوال حتى تطورت الأمور، والتهب لهيب الثورة العرابية فانشغل البارودى عن الأدب ، وتفرغ للمشاركة مع زملائه من قادة الثورة، يفكرون فى أوضاع البلاد ومواقف الخديوي المؤدية للانجليز، حتى انتهى الأمر بالغزو الانجليزى لمصر عام ١٨٨٢.

وبعد هزيمة الثورة العرابية ونفى البارودى إلى سيلان لم يجد من يبث شكواه إليه سوى ربة الشعر فكانت نعم العزاء حيث ألهمته أبلغ آياتها وساعده فى ذلك ذاتيته القوية فأبدع وأجاد فى ديوانه من الشعر السياسى، ومن وصف الطبيعة المصرية والآثار القديمة والحياة المصرية، واتجه بالشعر العربى وجهة جديدة برزت فيها شخصيته، وبدا شعره مرآة لبيئته وزمانه، فقال الشعر مخلصا محبا إياه، لا يبتغى سوى إرضاء نفسه وفنه وهذا الإيمان بالشعر هو الذى ألهمه الصبر خلال فترة النفى ، بعد أن يئس من العودة إلى وطنه ، وأبت عليه نفسه أن يضعف ومن ذلك قوله :

وإنى امرؤ لا أستكين لصولة

وأن شد ساقى دون مسعاى قده

وطال به النفى سبعة عشر عاما وشهورا أبدع خلالها أشعارا خلع عليها من الجلال والجمال ما رد إليها قوتها ، وإلى اللغة العربية بلاغتها.

وهكذا اتضحت شخصية البارودى الشعرية وإيمانه بقيمة الشعر بل بضرورته للحياة الإنسانية ، وبدا شعره كمرآة لبيئته وزمانه ، فقد بعث الشعر العربى واللغة العربية من مرقدها ورد إليهما الحياة مما وضعه فى مصاف كبار الشعراء خاصة وان رسالته لم تكن تجديد الشعر العربى فحسب بل كانت بعثه من مرقده والارتفاع به بلا تدرج ولا تمهيد حيث

انفرد بالريادة والسمو، وكان خلال ذلك مخلصا للشعر ، محبا له لا يبتغى به إلا رضا نفسه مؤمنا بأنه وسيلته إلى الخلود فى ضمير الأجيال. وحسب البارودى أن ديوانه آية لمجده ، وتراث للأجيال بعده، فهذا الديوان يمثل عبقرية خالـــدة بعثت فى العربية خلقا جديدا أعاد الحياة للشعر المعاصر بعد أن أضعفـــه العصر التركى العثمانى، فكان البارودى بذلك أول رواد الشعر فى العصر الحديث ، واستحق بحق أن يطلق عليه شاعر الرومانسية.